الباب الثانى

تعليم اللغات

أولا : وظيفة اللغة :

(١) تمهيد :

يعيش الإنسان عيشة جماعية ، مع مجموعة من الجنس البشرى ، تربطه بهم عوامل متعددة من النسب والجوار ، واتحاد الغايات والآمال والآلام والعواطف ، وغير هذا من الروابط الاجتماعية ؛ وهو لذلك فى أشد الحاجة إلى أن يتفاهم مع هذه المجموعة ؛ لتستقيم حياته ، وتنتظم أموره ؛ ولا نستطيع أن نتصور مجموعة من الناس ، يمكنها الاستغناء عن وسيلة للتفاهم بينها ، ولا شك أن المجموعات البشرية قد جهدت — منذ العصور التاريخية الأولى — فى سبيل الوصول إلى هذا التفاهم المنشود ، ولعلها تدرجت فى هذه السبيل ، فاتخذت من الإشارات والحركات والأصوات والرموز وسائل تعين على تحقيق هذا التفاهم بينها ، ثم انتهت هذه الجهود المتصلة ، باستخدام اللغة وسيلة لهذا التفاهم .

ولا يعنينا الآن أن نستقصى كل ما قاله الباحثون فى فقه اللغة ، أو علوم الاجتماع ، عن نشأة اللغات ، وهل بدأها الإنسان بأصواته الطبيعية ، التى تعبر عن انفعالاته فى المواقف المختلفة ، كأصوات الفرح والابتهاج ، وأصوات الحزن والرعب أو ما إليها ، وبمحاكاته أصوات الحيوان فى نباحه وزئيره ، ومواته وثغائه ، وأصوات الطبيعة فى خرير الماء ، وحفيف الشجر ، وتناوح الرياح ، وأصوات القطع والكسر ، وجعجعة الرحى ، ونحو ذلك ؛ ليعبر بهذه المحاكاة عن الشىء الذى يصدر عنه الصوت ، أو عما يلازمه من معان وأحوال . كما نلاحظ فى الطفل الصغير ، حين يعبر عن الكلب بقوله « الهوْ » وكأنه يريد أن يقول : الحيوان الذى يقول : « هوْ » أو حين يعبر عن الدجاجة بقوله : « الكاكة » .

كما لا يعنينا أن نجيب عن الأسئلة التى أثارها هؤلاء الباحثون ، كقولهم : أكانت اللغة فطرية ، أم كانت عن طريق المواضعة والاصطلاح ؟ أين نشأت اللغات ؟ متى

نشأت ؟ ما أول لغة ؟ . . . إلى غير ذلك من الأسئلة .

لا يعنينا فى بحثنا أن نتجه هذا الاتجاه ، الذى يضطرنا إلى كثير من الفروض والاحتمالات ، ولكن الذى يعنينا أن نذكر أن اللغة كانت أهم ما وصل إليه الإنسان من وسائل التفاهم ، لما تمتاز به من اليسر والوضوح ، ودقة الدلالة ، ولأن كثيراً من العواطف والمعانى الوجدانية لا يمكن التعبير عنها إلا باللغة ، ولغير ذلك من المزايا .

وأن نذكر — كذلك — أن هذه اللغة التى وصل إليها الإنسان ، لم تستكمل مقوماتها من حيث تنويع الأصوات ، وإحكام الألفاظ ، ودقة الدلالة على المعانى المختلفة ، إلا فى عدة مراحل متعاقبة ، وإذا اتخذنا ظواهر النمو اللغوى فى النوع الإنسانى ، من عهد الطفولة ، إلى اكتمال الرجولة مثالا نقيس إليه المراحل التى سارت فيها نشأة اللغات ، فإننا نستطيع أن نتصور أن اللغة قد انتقلت من الأصوات إلى المقاطع إلى الألفاظ ، ثم خضعت هذه الألفاظ لنوع من الوضع والاصطلاح ، ولما تجاوزت اللغة مرحلة النشأة والطفولة دخلت فى طور تقدمى جديد ، هو طور القوانين والضوابط اللغوية ، التى تحميها من الفساد ، ثم تهيأت لها بعد ذلك ألوان من التجميل والزينة والتأنق .

(ب) وظيفة اللغة فى حياة الفرد :

اللغة وسيلة لاتصال الفرد بغيره ، وعن طريق هذا الاتصال يدرك حاجاته ، ويحصل مآربه ، كما أنها وسيلته فى التعبير عن آلامه وآماله وعواطفه ، وهذه الترجمة عما يخالج النفس من الميول والانفعالات والخواطر ، تعد من أظهر الفوارق بين الإنسان وغيره من الأحياء ، واللغة تهيئ للفرد فرصاً كثيرة متجددة للانتفاع بأوقات الفراغ ، عن طريق القراءة ، وزيادة الفهم للمجتمع الذى يزيد إنتاجه الفكرى يوماً بعد يوم ، واللغة أداة الفرد حين يحاول إقناع غيره فى مجالات المناقشة والمناظرة وتبادل الرأى فى أمر حيوى .

وهى أداته — كذلك — حين يريد التأثير فى جماعة ؛ ليسلكوا سبيله ، وينهجوا نهجه فيما يدعوهم إليه .

واللغة — كذلك — أداة التفكير . والصلة بين اللغة والفكر صلة وثيقة محكمة ؛ لأن الفكرة منذ إشراقها فى الذهن تظل عامة شائعة ، يعوزها الضبط والتحديد ، حتى تجد الوسيلة التى تعبر عنها ، من لغة ، أو رسم ، أو نموذج ، ودور اللغة فى هذا التعبير له

المقام الأول ؛ ولذا يقال : التفكير كلام نفسى ، والكلام تفكير جهرى ، ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن أهم ما يفيده الفرد من اللغة تغذية الجانب العاطفى عن طريق التذوق الجمالى للآثار الأدبية ، ووظيفتنا فى المدرسة لا تقف عند تمكين التلميذ من التعبير السليم ، بل يجب أن نأخذه بسلامة الذوق وجمال التعبير ؛ واللغة وسيلة الفرد للاستفادة من تجارب الجنس البشرى وثمار القرائح والعقول ، عن طريق القراءة والاستماع .

كما أن اللغة للإنسان أشبه بجهاز عصبى آخر ، مع الجهاز العصبى الذى منحه ؛ إذ نستطيع باللغة أن ننبه إنساناً إلى خطر لا يراه فيتجنبه ، كما يستطيع الفرد عن طريق القراءة أن يرى صوراً ومناظر لا تتهيأ له رؤيتها ، وباللغة يستمتع الإنسان بوسائل التسلية والترفيه ، فيبتهج ويضحك كأنه يرى ما يبهج ويضحك .

(ح) وظيفة اللغة فى حياة المجتمع :

لكى نفهم الدور الذى تنهض به اللغة فى حياة المجتمع ، ووظيفتها فى تنظيم هذه الحياة ، نتصور أن مجتمعاً ما قد تعطلت فيه اللغة يوماً أو بعض يوم ، فلا كلام ولا كتابة ولا قراءة ، وننظر بعد هذا ما أصاب ذلك المجتمع من توقف وشلل وركود ، فندرك مدى توقف حياة المجتمع على اللغة ، ومدى حاجته إليها فى قضاء مآربه الأولية ، أو تنظيم شئونه الإدارية والسياسية والتعليمية ونحوها .

فاللغة وسيلة اجتماعية ، وأداة للتفاهم بين الأفراد والجماعات ، فهى سلاح الفرد فى مواجهة كثير من المواقف الحيوية ، التى تتطلب الكلام أو الاستماع ، أو الكتابة ، أو القراءة ، وهذه الفنون الأربعة أدوات هامة فى إتمام عملية التفاهم من جميع نواحيها ، ولا شك أن هذه الوظيفة من أهم الوظائف الاجتماعية للغة .

ومن الوظائف الاجتماعية للغة اتخاذها أداة للدعاية ، فالخطب والمقالات والنشرات والإذاعة والمؤلفات ، كلها وسائل لغوية لهذه الدعاية ، التى أصبح لها شأن خطير فى الحياة الإنسانية ، وقد أثبتت الحروب الحديثة أن الدعاية سلاح تعتمد عليه الدولة المحاربة ، وأنه قد يفوق أنواع الأسلحة الأخرى ، فى تحطيم قوى الأعداء ، وإحراز النصر .

واللغة — كذلك — من أهم وسائل الارتباط الروحى بين أفراد مجتمع معين ، وقد تختلف مجموعات من الدول فى البيئة ، أو الجنس ، أو الدين، أو فى غير ذلك من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنها تظل متحدة متماسكة إذا كانت لغتها واحدة ، وأظهر مثال لذلك الأمة العربية ، وكذلك الإنجليز والأمريكيون ؛ وبهذا نفسر حرص الدول الاستعمارية على نشر لغاتها فى الأمم التى تستعمرها ؛ لأنها تكتسب بهذا الغزو اللغوى قلوباً وميولا ، ربما لا تحصل عليها بطريق العنف ، واستعمال القوى المادية .

واللغة — أيضاً — عامل هام فى حفظ التراث الثقافى والحضارى ، ونقله من جيل إلى جيل ، والمشاركة فى تنمية هذا التراث للأجيال المستقبلة .

وقد بدأ المفكرون ينظرون إلى اللغة على أنها من أهم العوامل التى يمكن استخدامها فى تحقيق فكرة التقارب والتفاهم العالمى ؛ وذلك بتبادل الآداب المختلفة ، والدراسات الاجتماعية كالتاريخ والاجتماع والتربية الوطنية ، وغير ذلك مما يوضح آمال الشعوب ، وطبائعها ، وعواطفها ، ومزاياها ، وكل هذا يساعد على تقريب وجهات النظر بين الشعوب المختلفة .

ثانياً : نظرة التربية إلى تعليم اللغة :

(ا) التربية القديمة :

ظلت التربية فى العصور القديمة تنظر إلى اللغة على أنها مادة دراسية، تعلم لذاتها ، وقد غالت تلك التربية القديمة التقليدية فى هذه النظرة، وأهملت كثيراً من النواحى الوظيفية للغة .

وقد ترتب على هذه النظرة القديمة كثير من الأخطاء، يرجع بعضها إلى المناهج الدراسية ، وبعضها إلى طرائق التدريس ، وبعضها إلى تحديد الغاية من درس اللغة .

فمن تلك الأخطاء فى المناهج أنه كان يراعى فى وضعها ما يسمى بزيادة الثروة اللغوية ، والمبالغة فى الاهتمام بالمصطلحات الجافة ؛ فنشأ عن ذلك مناهج تحتوى على مجموعة من متن اللغة ، يحفظها التلاميذ ، وهى ألفاظ غريبة لن يستعملوها فى إنشائهم ، وربما لا تعرض لهم فى قراءتهم .

كما قصدت هذه المناهج إلى تكليف التلاميذ أن يستظهروا أساليب لغوية مختلفة،

لاتتفق مع لغة الحياة ؛ وقد أدى ذلك إلى إملال التلاميذ ، والإثقال عليهم ، وتنفيرهم من درس اللغة .

وانعكس أثر ذلك أيضًا على طرق التدريس ، فكان موقف التلميذ دائمًا موقفًا سلبيًّا ، وكان المدرس دائمًا فى موقف الإلقاء والتلقين .

وأصبحت الغاية من درس اللغة الإلمام بمفردات كثيرة ، وحفظ المصطلحات المختلفة ، وصار ذلك هو مقياس التفاضل بين الدارسين .

(ب) التربية الحديثة :

تنظر التربية الحديثة إلى اللغة ، على أنها وسيلة تفيد الفرد فى فهم النواحى الثقافية ، وعلى أنها أداة اجتماعية ، تمكن الفرد من الاتصال بغيره ، والتفاهم معه ، وأساس هذه النظرة أمران :

أنها وسيلة اجتماعية للتفاهم بين الأفراد ، وأنها يجب أن تدرس على أساس أهميتها الوظيفية فى الحياة ؛ وذلك ليدرك المتعلم أنه يتعلم شيئًا يحتاج إليه فى حياته .

التطبيق العملى لهذه النظرة :

(ا) بالنسبة للمعلم :

إذا أدرك المعلم أنه يزود التلميذ بوسيلة اجتماعية ، يستعملها فى حياته فإنه سيغير حتماً طريقته التقليدية ؛ حتى يحقق هذه الغاية ، فيهتم بتدريب التلاميذ على الاستعمال اللغوى الصحيح ، لا بتحفيظهم القواعد والتعاريف والتقاسيم ، كما يهتم بحسن اختيار الأمثلة مما يتصل بحياة التلميذ ، وبتدريب التلاميذ على التعبير الشفوى والكتابى ، كما يجعل من درس الأدب متعة وإثارة وتغذية للعواطف ، وتذوقًا لنواحى الجمال .

(ب) بالنسبة للمناهج :

الاتجاه بالمناهج إلى الناحية العملية ؛ وذلك بتدريب التلاميذ على فنون اللغة الأربعة : التحدث ، والاستماع ، والكتابة ، والقراءة ، واستبعاد الموضوعات الجافة الثقيلة ، التى لا تتصل اتصالا مباشراً بالوظائف الأساسية للغة .

(حـ) بالنسبة للأوضاع التربوية :

ليست اللغة مادة دراسية فحسب؛ ولذلك يجب ألا يقتصر تعليمها على فترات معينة محدودة فى الجدول الدراسى ، بل يجب تدريب التلاميذ على الاستعمال اللغوى الصحيح ، فى كل فرصة ممكنة ، ولا ينبغى — كذلك — أن يلقى العبء كله على عاتق معلم اللغة ، بل يجب أن يعد كل مدرس مسئولا عن النهوض بلغة التلاميذ . ويجب — كذلك — أن يعاد النظر فى مناهج الكليات التربوية ، والمعاهد التى تعد المدرسين ، على اختلاف اختصاصهم ، بحيث يكون كل مدرس متمكنًا من لغته ؛ ليستطيع أن يتعهد هذه الناحية فى تلاميذه ، داخل حدود مادته ؛ ولهذا كان من واجب الوزارة أن تجعل اللغة العربية فى طليعة المواد التى تدرس بهذه الكليات وتلك المعاهد .

ثالثاً : عناصر الاتصال اللغوى :

بينا أن اللغة أداة الاتصال بين مجموعة من الجنس البشرى ، ووسيلة التفاهم بينهم ، وتبدو هذه الأهمية واضحة حين نعيش فترة من الزمن فى مجتمع لا نعرف لغته ، إننا نشعر — ولا شك — بأننا فى عزلة تامة عن هذا المجتمع .

وهذا الاتصال اللغوى الناجح ينتهى إلى نوع من التفاهم ، والتفاهم هو تفاعل الفهم بين طرفين ، لك أن تسميهما مفهماً وفاهماً ، أو ملقيًا ومتلقيًا ، أو مصدراً ومستقبلا ، أو معطيًا وآخذاً ، أو متكلمًا وسامعًا ، وفى جميع هذه المعانى نجد فى التفاهم إفهامًا وفهمًا ، وللإفهام أداة طبيعية ، هى اللسان ، وللفهم أداة طبيعية هى الأذن . من حيث إنها طريق موصل .

ولكن التفاهم الذى يتم عن طريق اللسان والسمع تفاهم محدود؛ لأنه مقيد بزمن معين ، ومكان محصور ، فالإنسان لا يستطيع أن يتفاهم مع غيره بهاتين الأداتين الطبيعيتين إلا إذا احتواهما مكان محدد ، وجرى الكلام والسمع فى وقت واحد ، ولا شك أن الإنسان لم يقنع بهذا التفاهم المحدود المقيد ؛ لأن حاجته إلى أن يتفاهم مع غيره . ممن تفصله عنهم المسافات الزمانية والمكانية حاجة مستمرة ؛ ولهذا أعمل عقله فى ابتكار وسيلة يتغلب بها على هذه القيود الزمانية ، فاخترع طريقة صناعية للإفهام ، وهى الكتابة ، وطريقة صناعية للفهم ، وهى القراءة ؛ وبهذا أمكنه أن يفهم عن الماضين ، بقراءة آثارهم المكتوبة ،

وأن يترك أفكاره ؛ ليفهمها عنه من سيأتون بعده ، وكذلك استطاع أن يتفاهم مع الناشئين عنه ، عن طريق الكتابة والقراءة ؛ وبهذا أصبح للغة أربعة ميادين : هى الكلام ، والاستماع ، والكتابة ، والقراءة ، وصارت مهمة مدرس اللغة أن يتعهد الناشئين فى هذه الميادين الأربعة فيقدرهم على الكلام للتعبير عما فى نفوسهم ؛ لإفهام غيرهم ما يريدون ، وعلى الاستماع لفهم ما يلقى عليهم ، وعلى التعبير الكتابى للإفهام ، وعلى القراءة للفهم .

رابعاً : اللغة العربية :

اللغة العربية هى لغة العروبة والإسلام، وأعظم مقومات القومية العربية ، وهى لغة حية قوية، عاشت دهرها فى تطور ونماء ، واتسع صدرها لكثير من الألفاظ الفارسية ، والهندية، واليونانية وغيرها، وفى القرون الوسطى كانت المؤلفات العربية فى الفلسفة والطب ، والعلوم الرياضية وغيرها مراجع للأوربيين ، كما كانت اللغة العربية أداة التفكير ونشر الثقافة فى بلاد الأندلس ، التى أشرقت منها الحضارة على أوربة، فبددت ظلماتها ، وقشعت عنها سحب الجهالة ، ودفعتها إلى التطور والنهوض .

وفى العصور الحديثة تهيأت للغة عوامل جديدة للتطور والتقدم؛ فقد ارتقت الصحافة ، وانتشر التعليم ، وأنشئ مجمع اللغة العربية ، وهى الآن اللغة الرسمية فى جميع الأقطار العربية الشقيقة ، ولغة التفاهم بين جميع الشعوب العربية ، كما أنها لغة التعليم فى جميع المدارس والمعاهد وأكثر الكليات الجامعية ، وهى — كذلك — لغة الصحافة ، والإذاعة والقضاء ، والتأليف ، فى البلاد العربية .

وقد اتجهت النية إلى جعلها إحدى اللغات الرسمية ، فى المحافل والمؤتمرات والاجتماعيات الدولية .

وإذن فمن حق اللغة علينا أن نخلص لها ، وأن نبذل الجهود لرفع شأنها ، وسيادتها فى المجتمع العربى ، ومن حقها فى الميدان التعليمى أن نوليها أكبر قسط من العناية ، وألا نضن عليها بالجهد والوقت .

ولعل من مظاهر الاحتفاء بها ، والولاء لها ، فى ميدان التعليم ، أن نتعرف إلى ما يكتنف تعليمها من صعاب ؛ حتى نتجه إلى تذليل هذه الصعاب ، وإلى تمهيد السبيل لتعليمها تعليماً مثمراً ميسراً ؛ والواقع أن فى لغتنا بعض الصعوبات ، لا سبيل إلى تجاهلها . وغض النظر عنها ، من هذه الصعوبات ما هو جوهرى أصيل، ومنها ما هو طارئ دخيل .

فمن الصعوبات الجوهرية الأصيلة التى نلحظ آثارها فى تعليم الأطفال تعدد صور الحروف العربية ، باختلاف مواقعها من الكلمة . ومنها أيضًا إضافة الحركات والسكون إلى صورة الحرف ؛ لضبط النطق وصحة الأداء . ولا يخفى ما فى ذلك من مضاعفة الصعوبات على الأطفال .

أما الصعوبات الطارئة الدخيلة فتتمثل فى مزاحمة اللغة العامية ، وقوة نفوذها ، وبسط سلطانها فى البيت والشارع . والملعب والسوق ، بل فى المدرسة أيضًا .

ومن هذه الصعوبات التى شقيت بها اللغة العربية . وأثرت فى تعليمها ، الوضع الاجتماعى لها فى فترة من الزمن طويلة ثقيلة . وذلك أن اللغة العربية تعرضت لألوان المحن . وضروب الكيد . أيام الاحتلال . وفى عهود السيطرة الأجنبية على البلاد العربية ، وعملت السياسة الاستعمارية — فى جد ودأب — على زحزحة اللغة القومية عن مكانتها الطبيعية . وعلى تخلف القوامين عليها عن نظرائهم ممن يحملون أعباء التربية والتعليم . كما عملت هذه السياسة على تقديم الثقافة الأجنبية . وإيثار أربابها ، وخلق جو اجتماعى عاشت فيه أجهزة التعليم مدة من الزمن . فقدت فيه معالم الكرامة القومية ، والعزة العربية .

ونحن — مدرسى اللغة العربية — ماذا يجب علينا حيال هذه الصعوبات ؟

لا يجمل بنا أن نبالغ فى خطر ما أسميناه صعوبات جوهرية أصيلة ؛ فإن التجارب التربوية . والطرائق الحديثة . التى تتجدد على مدى الأيام كفيلة بتذليل الصعوبات . وتيسير اللغة للأطفال . وقد أحرزنا فى ذلك نصراً محموداً .

أما مزاحمة اللغة العامية . فهى مشكلة اجتماعية عامة . وعلينا أن نروض أنفسنا على الصبر وطول الاحتمال . ولا يغيب عن أذهاننا أن محو الأمية . وانتشار التعليم . وجهود الإذاعة والصحافة . والتزام اللغة الفصيحة فى مجالات التدريس . وترديد الأناشيد — كل ذلك من العوامل التى تنهض باللغة العامية . وترفع مستواها . وتمهد السبيل للأساليب الصحيحة . والتعبيرات السليمة .

أما الوضع الاجتماعى للغة فيقتضينا الحق والإنصاف أن ننوه بأن اللغة العربية ، قد ظفرت فى هذا العهد الجديد بحقها من الاحتفاء والتقدير والتكريم ، وتبوأت مكان الصدارة

فى الميدان التعليمى ، وصار النجاح فيها شرطًا أساسيًا لنجاح التلاميذ ، كما عرف لها قدرها وخطرها فى إحياء القومية العربية ، والدعاية لها ، والذياد عنها .

خامساً : فروع اللغة العربية :

تندرج تحت هذا العنوان نظريتان : هما نظرية الوحدة ، ونظرية الفروع .

نظرية الوحدة :

المراد بها فى تعليم اللغة أن ننظر إلى اللغة ، على أنها وحدة مترابطة متماسكة ، وليست فروعًا مفرقة مختلفة ، ولتطبيق هذه النظرية فى تعليم اللغة يتخذ الموضوع أو النص محوراً تدور حوله جميع الدراسات اللغوية ، فيكون هو موضوع القراءة ، والتعبير ، والتذوق ، والحفظ والإملاء ، والتدريب اللغوى . . . وهكذا ، وقد كانت هذه الطريقة هى السائدة فى العهود الأولى تدريسًا وتأليفًا ، وكتاب الكامل للمبرد يعدّ مثالا للتأليف على هذه الطريقة ؛ ففيه يعرض النص ، ويعالج من الناحية اللغوية والنحوية والصرفية وغيرها .

وطبيعى أن نظرية الوحدة لا تعترف بتخصيص حصص معينة لأى نوع من أنواع الدراسات اللغوية .

أسس هذه النظرية :

تعتمد نظرية الوحدة فى تعليم اللغة على أسس نفسية ، وأسس تربوية ، وأسس لغوية .

فمن الأسس النفسية :

١ – أن فيها تجديداً لنشاط التلاميذ ، وبعثًا لشوقهم ، ودفعًا للسأم والملل عنهم ؛ وذلك لتنوع العمل وتلوينه .

٢ – وفيها نوع من تكرار الرجوع إلى الموضوع الواحد ؛ لعلاجه من مختلف النواحى ، وفى التكرار تثبيت وزيادة فهم .

٣ – ونظرية الوحدة تقضى بفهم الموقف الذى يمثله الموضوع فهما كليًا أولا ، ثم الانتقال بعد ذلك إلى فهم الأجزاء ، وهذا يساير طبيعة الذهن فى إدراك الأشياء والمعلومات .

ومن الأسس التربوية :

١ ــ أن فيها ربطًا وثيقًا بين ألوان الدراسات اللغوية .

٢ ــ وفيها ــ كذلك ــ ضمان للنمو اللغوى عند التلاميذ نموًّا متعادلا ، لا يطغى فيه لون على آخر ؛ لأن هذه الألوان جميعها تعالج فى ظروف واحدة ، لا تتفاوت فيها حماسة المدرس أو إخلاصه أو غير ذلك من العوامل .

ومن الأسس اللغوية :

أنها مسايرة للاستعمال اللغوى ؛ لأننا حين نستعمل اللغة فى التعبير الشفوى أو الكتابى إنما نصدر فى كلامنا أو كتابتنا عن ثقافتنا اللغوية وحدة مترابطة ، بمعنى أننا لا نستشير القاموس أولا ؛ ليمدنا بالمفردات التى نحتاج إليها ، ثم نستشير القواعد ؛ لنفهم كيف نؤلف الجمل ، ونضبط الكلمات ، بل يتم تعبيرنا بصورة سريعة فيها تكامل وارتباط .

نظرية الفروع :

المراد بها فى تعليم اللغة أننا نقسم اللغة فروعًا ، لكل فرع منهجه وكتبه وحصصه، مثل المطالعة ، والمحفوظات ، والتعبير ، والقواعد ، والإملاء ، والأدب ، والبلاغة .
ولتطبيق هذه النظرية يعالج كل فرع من هذه الفروع على أساس منهجه المرسوم فى حصصه المقررة فى الجدول الدراسى .

مظاهرها فى التعليم :

تسير دراسة اللغة فى المدارس على نظرية الفروع إلى حد كبير :

١ ــ فحصص اللغة موزعة على هذه الفروع .

٢ ــ ولكل فرع منهج خاص به .

٣ ــ ولكل فرع ــ كذلك ــ كتاب خاص .

٤ ــ وفى الامتحانات توزع الدرجات على هذه الفروع .

٥ ــ وكذلك الأمر فى التفتيش ، فإن المفتش يختبر التلاميذ فيما يريد من هذه الفروع كل فرع على حدة .

فوائدها :

١ ــ اتباع نظرية الفروع يتيح للمدرس أن يؤثر لونًا معينًا من ألوان الدراسات اللغوية بمزيد من العناية فى وقت خاص .

٢ ــ كما يستطيع المدرس أن يستوعب المسائل التى ينبغى دراستها ؛ لأن نظرية الوحدة قد تتخلف عنها ثغرات فى مسائل المنهج ، لا تظفر بنصيبها من العناية والدرس .

عيوبها :

١ ــ فيها تمزيق للغة يفسد جوهرها ويخرجها عن طبيعتها . فهذا التمزيق يعد تفتيتًا للخبرة اللغوية التى يكسبها التلاميذ ، ولعل هذا من أسباب عجزهم عن استعمال اللغة فى المواقف الحيوية استعمالا سليمًا من جميع الوجوه ، فهم لا يتحرون الضبط الصحيح والنطق السليم إلا فى حصة القواعد ، ولا يتأنقون فى اختيار العبارات إلا فى حصة الأدب ، ولا يهتمون برسم الكلمات رسمًا صحيحًا إلا فى حصة الإملاء ؛ ولا يرسمونها رسماً جميلا إلا فى حصة الخط .

٢ ــ عدم التعادل فى النمو اللغوى ؛ فقد تشتد حماسة المدرس ويزيد إخلاصه فى حصة القواعد مثلا ، فينعكس ذلك على التلاميذ ، ثم تفتر هذه الحماسة ، ويخبو ذلك الإخلاص فى حصة القراءة ، فلا ينتفع التلاميذ ، وبهذا الاضطراب لا يتكافأ النمو اللغوى عند التلاميذ .

٣ ــ فى هذه الطريقة تقل فرص التدريب على التعبير . ويضيق مجاله ، مع أن التعبير هو ثمرة الدراسات اللغوية جميعها .

التوفيق بين النظريتين :

ليس التوفيق بين هاتين النظريتين عسيراً . بل يمكن الانتفاع بمحاسنهما وذلك على الأسس الآتية :

١ ــ ألا نعتبر أىّ فرع من فروع اللغة العربية قسمًا قائمًا بذاته ، منفصلا عن غيره ، بل نعتبر الفروع جميعها أجزاء شديدة الاتصال لكل واحد هو « اللغة » .

٢ – أن ينظر المدرس إلى هذا التقسيم على أنه تقسيم صناعى ، يراد به تيسير العملية التعليمية ، وزيادة العناية بلون معين فى وقت معين .

٣ – اتباع نظرية الوحدة فى الصفوف الصغيرة ، واتباع نظرية الفروع فى الصفوف المتقدمة على شرط أن يعالج المدرس أكثر ما يمكن من الفروع فى كل حصة بصورة خالية من التكلف والتعسف .

الصلة بين فروع اللغة :

هى صلة جوهرية طبيعية ؛ لأن الفروع جميعها متعاونة على تحقيق الغرض الأصلى من اللغة ، وهو إقدار المتعلم على أن يستخدم اللغة استخداماً صحيحاً للإفهام والفهم ، ولبيان هذه الصلة بين الفروع نسوق الأمثلة الآتية فى إيجاز :

١ – المطالعة : فيها مجال للتدريب على التعبير والتذوق والاستعمال اللغوى والإملاء بجانب التدريب على القراءة والفهم .

٢ – القواعد النحوية : فيها مجال للتدريب على التعبير والتذوق والإملاء بجانب القدرة على الاستعمال اللغوى الصحيح .

٣ – الإملاء : فيه مجال للتدريب على التعبير والتذوق والاستعمال اللغوى بجانب التدريب على رسم الحروف والكلمات رسماً صحيحاً .

٤ – الدراسات الأدبية : وتشمل الأناشيد والمحفوظات والنصوص الأدبية والبلاغة : فيها تدريب على القراءة والتعبير والاستعمال اللغوى بجانب الفهم والتذوق وتنمية الثروة اللغوية .

وهكذا يمكن فى كل حصة من حصص اللغة العربية معالجة أكثر من فرع ، وتحقيق طائفة من الفوائد اللغوية مختلفة الألوان .

مزايا توكيد الصلة بين فروع اللغة :

١ – أن يشعر التلميذ بأن اللغة وحدة متآلفة العناصر ، متكاملة الأجزاء ؛ وبهذا لا يتهيب اتساعها ونموها .

٢ – دفع السأم والملل عن التلاميذ فى أثناء الدرس ، وبخاصة تلاميذ الفرق الصغيرة .

٣ – إتقان التلاميذ فروع اللغة بطريقة طبيعية تساير وظيفة اللغة واستعمالها .

سادساً : الصلة بين اللغة والمواد الدراسية :

ليست اللغة العربية مادة دراسية فحسب ؛ ولكنها مع ذلك وسيلة لدراسة المواد الأخرى ، وإذا استطعنا أن نتصور شيئًا من ظواهر العزلة والانفصال بين بعض المواد الدراسية ، فلن يمكننا أن نتصور هذا الانفصال بين اللغة وغيرها من المواد الدراسية ، علمية كانت أو فنية ، نظرية أو عملية .

وإذا كانت اللغة هى مادة التخصص لمدرسى اللغة العربية ، فهى بالنسبة إلى سائر المدرسين مفتاح لمواد تخصصهم ، وهى وسيلتهم الأولى لقراءة مراجع هذه المواد وفهمها ، وشرح موضوعاتها للتلاميذ ، ووضع المذكرات ، وتأليف الكتب لهم .

وهناك علاقة وطيدة بين اللغة وغيرها ؛ فقد ثبت بالتجارب والمشاهدات أن تقدم التلاميذ فى اللغة العربية يساعدهم على التقدم فى كثير من العلوم ، التى تعتمد فى تحصيلها على القراءة والفهم ؛ فالتلميذ السريع القراءة يستطيع أن يستوعب ما يراد تحصيله فى سرعة وسهولة ، والتلميذ المتمكن من اللغة يفهم ما يقرأ بسرعة ؛ فيساعده هذا على الإلمام بما يقرأ من المواد الأخرى .

وكثير من الخطأ فى إجابات التلاميذ يرجع إلى عدم قدرتهم على فهم ما يقرءون ، أو إلى خطئهم فى هذا الفهم ، أو إلى ضعفهم فى التعبير .

وكثير من الموضوعات الدراسية يمكن اتخاذه أساسًا لدراسات لغوية ، كالتاريخ والتربية الوطنية ، ودراسة المجتمع .

فعلى مدرسى اللغة العربية أن يطلعوا على مناهج هذه المواد ، ويتخيروا ما يصلح للدراسات اللغوية ، وكذلك دراسة المواد الأخرى باللغة العربية تتيح فرصًا مستمرة متجددة للنمو اللغوى .

أمثلة لصلة اللغة العربية بغيرها :

الحساب : لا يستطيع التلميذ حل مسألة لا يفهم لغتها ، ودلالات ألفاظها وعباراتها ، وقد أثبتت التجارب أن كثيراً من التلاميذ أخفقوا فى حل المسائل الحسابية ؛ لأنهم لم يفهموا كلمة « تلف » أو « ربح » أو « سلع » أو « ريع » .

المواد الاجتماعية : يعتمد التلاميذ فى تحصيلها على القراءة والفهم ، ولا شك أن تقدم

التلميذ فى اللغة يساعده على سرعة التحصيل ، وقد يطلب إلى التلميذ تلخيص موضوع ، أو وضع عناوين جانبية ، أو صوغ بعض الأسئلة ، ولاشك أن التقدم فى اللغة ، يساعده على ذلك ، كما لا ننكر أن هذا يساعد التلميذ على النمو اللغوى .

الطبيعة والكيمياء : فيهما تجارب تحتاج إلى الدقة فى الوصف والتعبير ، وفيهما نتائج وقوانين تحتاج إلى هذه الدقة أيضًا .

الترجمة : اللغة الطيعة الخصبة تفيد صاحبها فى الترجمة ، وفى دقة نقل المعانى ، والبعد عن أخطاء الترجمة الحرفية .

الهندسة : فيها تساق البراهين ، فى دقة ومنطق وترتيب ، واللغة الجيدة هى المعين على ذلك .

مسئولية المدرسين :

الغرض الأساسى من تعليم اللغة هو إقدار التلاميذ على أن يتخذوها وسيلة للتفاهم ؛ وعلى هذا الأساس ينبغى أن يقع عبء تعليم اللغة على المدرسين جميعًا ، لا على مدرس اللغة وحده ، ويقول الإنجليز فى نصائحهم التعليمية : « على كل مدرس أن يعد نفسه مدرسًا للإنجليزية » . ولنا أن نقول : « على كل مدرس أن يعد نفسه مدرسًا للغة العربية » وفى هذا المبدأ فوائد تربوية :

١ — فعندما يجد التلميذ أن اللغة موضع الاهتمام من جميع المدرسين يزداد اهتمامه بها . كما يزداد إيمانه بأنها وسيلة للتفاهم والاتصال فى جميع المواقف ، لا فى حصص اللغة العربية وحدها .

٢ — إذا لم تتضافر جهود جميع المدرسين على النهوض باللغة العربية فإن جهود مدرس اللغة تصبح ضئيلة الأثر ، بل إن مدرسى المواد الأخرى قد يفسدون عليه عمله ، ويهدمون بناءه ، وقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يزدرى الاتجاه الذى يبدو من بعض التلاميذ نحو الحرص على اللغة . قائلا : « دعنا من هذا فلسنا فى حصة لغة عربية ».

٣ — أن مدرسى المواد الأخرى — حين يحرصون على اللغة ، ويهيئون الفرص لذلك — إنما يتيحون للتلميذ جوًّا جديداً للتدريب على اللغة ، فلو تصورنا أن التلميذ يحضر فى اليوم سبع حصص مثلا . وأفاد من كل حصة فائدة لغوية ، إلى جانب فائدته من درس اللغة نفسه ، فإن الربط بين مواد الدراسة يكون أتم ، والفائدة من اللغة أعم وأشمل .

موقف المدرسين فى المدارس المصرية :

مما يؤسف له أن نقرر أن معظم المدرسين مقصرون فى هذا الواجب الذى تحدثنا عنه :

١ — فمدرسو اللغة العربية كثيراً ما يرخصون لأنفسهم فى الحديث باللغة العامية .

٢ — ومدرسو المواد الأخرى قل أن يفيدوا التلاميذ أية فائدة لغوية ، ومنهم من يعجزون عن تصحيح الأخطاء ؛ بل ربما خطئوا الصواب ؛ وإذا عرضت مشكلة لغوية ، فى غير حصة اللغة العربية ، نجد المعلم — لعدم إيمانه بوظيفته الحقيقية — إما أن يتهاون ويسمح بمرور هذه الأخطاء ، وإما أن تبلغ به الاستهانة تعنيف التلميذ الذى يبدو منه الحرص على اللغة العربية .

هؤلاء المدرسون جميعًا لا يدركون أنهم مدرسون للغة ، بجانب تدريسهم المواد الأخرى ، ونحن فى هذا العصر ، الذى نشيد فيه بالقومية العربية ، ونثير فى التلميذ حب هذه القومية ، والاعتزاز بها ، لانجد بين أيدينا وسيلة طيعة مجدية مضمونة الأثر ، إلا هذه اللغة التى تعد أقوى رابطة تربط بين أبناء العرب جميعًا .

فليصرف كل منا بعض حماسته للقومية العربية إلى العناية باللغة العربية والاعتزاز بها ؛ ليكون — بحق — مسهمًا فى هذا الواجب القومى النبيل .

ومشكلة اللغة القومية هينة عند الأمم الأخرى ؛ لأن مدرسى المواد المختلفة يتقنون لغتهم إلى حد يستطيعون معه أن يفيدوا التلاميذ فوائد لغوية . بجانب الفوائد الثقافية الأخرى ، ويؤمنون أن إتقانهم اللغة القومية . وحرصهم عليها . من أهم مقومات المدرس ، والمواطن الصالح المستنير .